الموضوع: المنهج الوصفي.

تعتمد الدّراسات اللّغوية منذ نشأتها بصفة كاملة على الوصف؛و الوصف هو أوّل أهداف العلم، ولا يكتفي العلم بالوصف فقط، بل لا بدّ من تفسير ما يتم وصفه،و إذا كان الوصف عنصرا أساسا في الأبحاث اللغوية، و إذا كان علماء اللغة القدامى قد وظّفوه بطريقة تلفت النّظر و تفرض التّقدير والاحترام؛فإنّ علماء القرن العشرين في أوروبا قد خصّوه بمنهج مستقل له خصائصه و مقوّماته أسموه المنهج الوصفي ويقابله في الاصطلاح.

فلقد دأب العلماء في القرن التّاسع عشر للميلاد على البحث في اللغة بتوظيف المنهجين التّاريخي و المقارن، ولم ينتبهوا إلى أنّه بالإمكان دراسة اللّغة على نحو علميّ أكثر دقة ممّا سبق، وهو بإخضاعها للدّراسة الآنية؛ أي بدراسة الظّاهرة اللغوية في لغة معينة و في فترة زمنية محدّدة، وذلك **بملاحظة تلك الظاهرة و وصفها و تفسيرها**، والحديث عن جوانبها وكشف حقائقها و خصائصها للوصول إلى أسبابها و العوامل التي تتحكم فيها، واستخلاص النّتائج و من ثمّ تعميمها،إلاّ أنّ الباحث السويسري دي سوسير في القرن العشرين رأى أنّ هذا الاتّجاه هو الأصح في دراسة اللّغة للوصول إلى حقائق علمية دقيقة وذلك بفضل منهج آخر يختلف عن المنهجين السّابقين هو **المنهج الوصفي (méthode descriptive (** و أطلق على اللّغة التي توظف هذا المنهج عبارة ( **linguistique synchronique)** أي اللسانيات الوصفية و هي عبارة ترجع إلى الأصل اليوناني مركبة من جزأين(**syn)** بمعنى ( معا) و ((chronos بمعنى ( زمن) ، أي إنّ الدّراسة تدرس في الوقت نفسه، و بهذا فإنّ المبدأ الذي ينطلق منه **المنهج الوصفي** يختلف جذريا عن ذلك المبدأ الذي يعمل على وفقه المنهجان **التاريخي و المقارن إذ** إنّ الباحث اللّغوي **بالمنهج الوصفي** لا يلقي بالا إلى الظّاهرة المدروسة في الفترات الزمنية المتلاحقة و الّتي من الأكيد أن تحدث عليها بعض التّغيرات بفعل التّباين الزمني،و إنّما **يدرس الظّاهرة في وقت محدّد لا يتجاوزه، ويدرسها كما هي عليه لا كما يجب أن تكون ،**كما أنّه لا يلقي بالا إلى الظّاهرة في لغتين مختلفتين فيلجأ حينئذ إلى مقارنتها بأختها في اللّغة الأخرى و إنّما **يكتفي بدراستها في لغة واحدة لا يتجاوزها؛**يقول رمضان عبد التواب**" يكتفي المنهج الوصفي ،بوصف أيّ لغة من اللغات عند شعب من الشّعوب أو لهجة من اللهجات في وقت معيّن؛** أي إنّه يبحث اللغة عرضيا لا طوليا ، ويصف ما فيها من ظواهر لغوية مختلفة، ويسجل الواقع اللّغوي تسجيلا أمينا**،بل إنّ أنطوان مييه (a, meillet (** يذهب إلى أبعد من هذا **،** حين يرى أنّ **المنهج الوصفي** يعنى **بدراسة الاستعمال اللّغوي** في عمومه عند شخص بعينه في زمان بعينه و مكان بعينه".

وبذلك، فإنّ أيّة دراسة صوتية أو صوتية أو نحوية أو دلالية لإحدى اللّهجات القديمة أو الوسيطة أو الحديثة تعدّ **دراسة وصفية** بشرط أن تكون **فترة زمنية محدّدة** و هذا **الشرط ضروري لتحقيق نتائج علمية دقيقة؛** لأنّ عامل الزمن يؤثر في تغيّر الظّاهرة المدروسة ، وهذا التّغيّر يعطي نتائج غير دقيقة في تحديد خصائص تلك الظاهرة، وهكذا يكون المنهج الوصفي قد دفع بعجلة العلم في اللغة دفعة قوية نحو الدّقة العلمية.

1. **المدارس اللّسانية الّتي تبنّت المنهج الوصفي:**

لقد شهد **القرن العشرون مدارس لسانية متعدّدة** تبنّت **المنهج الوصفي** في أبحاثها اللّغوية وهي**:**

1. **المدرسة البنيوية:** و أوّل روّادها **دي سوسير،** وقد تأثر بنظريته العالم الأنثروبولوجي الأمريكي **فرانز بوعز و غيره ،** واللّساني الأمريكي **بلومفيلد** الّذي أسهم في تطوير المدرسة اللّغوية البنوية.
2. **مدرسة النّحو التّوليدي التّحويلي:** وقد رفضت هذه المدرسة كثيرا من الأسس الّتي ارتضتها المدرسة البنيوية، ومن ذلك أنّ الكثير من البنيويين قد استبعدوا **المعنى** في دراساتهم للّغة و اهتموا **بالشّكل الخارجي** لها،بينما **المعنى** بالنّسبة **للتّحوليين أمر ضروري** في شرح العلاقة بين الجمل الّتي تحمل المعنى نفسه وتختلف في ظاهر تراكيبها، وعلى رأس هذه المدرسة اللّساني الأمريكي **هاريس( Z.Haris)** و تلميذه **تشومسكي (N.chomsky ( و** يعدّ الأّول و الأب الحقيقي **لعلم اللّغة التّحويلي** والثاني الأب الحقيقي **لعلم اللّغة التّوليدي ،** وقد لاحظ تشومسكي **أن المنهج البنيوي الذي يتمتّع بشيء من الجدوى في دراسة الفونيمات والمورفيمات، لا يتوافق مع دراسة الجمل؛** لأنّ كل لغة بها عدد محدود **من** الفونيمات والمورفيمات، غير أنّ عدد الجمل في أيّة لغة واقعيّة هو عدد غير متناه،إذ ليس هناك حدّ لعدد الجمل الجديدة الّتي يمكن إنشاؤها والمدرسة البنيوية لا تستطيع تفسير ذلك .
3. **مدرسة القوالب:** تشارك هذه المدرسة **تشومسكي** وجهة نظره القائلة **بوجود جانبين في دراسة اللّغة ،**هما:**الكفاءة والآداء** وترى هذه المدرسة أنّ مهمة علم القواعد في أسسه الأوليّة تتمثل في إعطاء نموذج أو لنقل صورة **لجانب الكفاءة ،**وهو جانب غير واع في معظمه،شأنه في ذلك شأن استعمال النّاس للّغة بالاعتماد على آثاره الّتي تتجلى في **جانب الآداء الذي تسهل ملاحظته و رصده** وترى أيضا أنّ **التّحليل اللّغوي** يعني **طائفة من الإجراءات لوصف اللّغة،** ويعتمد على **وحدة نحوية** أساس تسمّى ( **القالب)**و ترد هذه الوحدة ضمن **مركب على هيئة سلسلة،**وتقع **ضمن مستويات معيّنة** من **المستويات النّحوية،**و أشهر علماء هذه المدرسة هو اللّساني الأمريكي **كنيث بايك ،**وبذلكترى أنّه و إن كان بإمكان **المنهج الوصفي** أن يستقل عن المناهج الأخرى في دراسة **أصوات اللّغة** إلاّ أنّذلك يتعذر في حال **التّراكيب** إذ إنّه بحاجة ماسة إلى **المنهج التّاريخي** للوصول **إلى نتائج علمية دقيقة ومنطقية، يقول رمضان عبد التّواب " إنّ عرض نحو أيّة لغة** يكتفي إن أراد الاقتصار على هذه اللّغة **بوصفها،** غير أنّ **تعليل الظواهر** الّتي توجد في هذه اللّغة يظلّ أمرا بالغ الصّعوبة ، إذ لم يعرف لهذه اللّغة **فترات تاريخية**  متباعدة يمكن المقارنة بينها ومعرفة **صور التّطور النّاتجة عبر الأجيال الكثيرة؛** وعندئذ يمكن الكشف عن السّر الّذي يكمن وراء إحدى صور هذا التّطوّر" وهكذا نرى بأنّ الصّلة وثيقة بين هذين المنهجين و لا غنى للباحث في اللّغة عنهما من الناحية العملية، يقول **ماريو باي "** وبينما الوظيفة الأولى **لعلم اللّغة الوصفي** هي أن **يصف ،ولعلم اللّغة التّاريخي** هي أن يعرض **التّغيّرات اللّغوية،**فمن **الصّعب كثيرا الفصل بين النّوعين في مجال التّطبيق العملي؛** وذلك لأنّ كلّ المصطلحات الّتي استعملت تحت العنوان الوصفي قابلة من النّاحية العمليّة للاستعمال كذلك مع الفرع التّاريخي" ولذلك فإنّ **المنهج الوصفي** يشتمل على عدد من المناهج الفرعية والأساليب المساعدة،كأن يعتمد على دراسة الحالة أو الدّراسة الميدانية أو التّاريخية .

إنّ المتتبّع لتطوّر العلوم يستطيع أن يلمس الأهميّة الّتي احتلّها **المنهج الوصفي** في هذا **التّطوّر،**و يعزى ذلك إلى ملامسته القريبة جدّا لدراسة الظّواهر اللّغوية؛ لأنّ هذا المنهج يصف الظّواهر **وصفا موضوعيا** التي يتحصل عليها باستخدام أدوات وتقنيات البحث العلمي، ولا يقتصر **المنهج الوصفي** على التّعرّف على معالم الظّاهرة وتحديد أسباب وجودها، وإنّما يشمل كذلك تحليل البيانات وقياسها وتفسيرها و التوصّل إلى وصف دقيق،و يرجع الفضل في توظيف هذا **المنهج** إلى العالم السويسري **دي سوسير**الّذي اعتمده في دراسته، و دعا إلى **وصف اللّغة كما هيو ليس كما يجب أن تكون** و اهتم في تأسيس **نظريته** على **التّمييز بين الكثير من الثّنائيات أو التّناقضات،** واعتمد في دراسته على **اللّغة المنطوقة.**

1. **أسس المنهج الوصفي:**

يقوم **ا لمنهج الوصفي على ثلاثة أسس،**هي**: الاستقراء** و**التّصنيف** و **التقعيد ،** ولكلّ أساس **شروطه** في هذا المنهج.

1. **الاستقراء:**حيث يقيم الواصف دراسته على **الوقوف على الكيفية التى تنفذ بها اللغة على أالسنة المتكملمين** و يشترط في ذلك:

* الاعتماد على معطيات لغوية مستعملة فعلا.
* الاتّصال المباشر بالمتكلّمين و السّماع من أفواههم، و تدوين المسموع؛
* الاعتماد في العمل الميداني على  **المتكلّم الأصلي ،** و هو الراوي أو مساعد الباحث؛
* أن يكون **الرّاوي ممثلا صادقا للغة أو اللّهجة المدروسة،**بأن يكون ممّن نشئوا في ظلّ هذه اللّغة قيد الدّراسة، ومن الأفضل أن لا يكون قد خرج من المنطقة الّتي تتكلّم بها، لأنّ كثرة الأسفار والتّعرض للاحتكاك باللّهجات الأخرى يجعل المرء عرضة للتّغير في نطقه؛
* يحسن أن يكون الراوي أميّا حتّى لا يتأثر بالعوامل الثّقافية في تمثيله الصّحيح.
* **التّصنيف:**و هو **الأ**ساس الّذي يلي عملية الاستقراء، ويقصد به تقسيم المادة اللّغوية، ويشترط في ذلك:
* **الملاحظة الدّقيقة** للمادة اللّغوية المستقرأة.
* تحديد أوجه **الاتّفاق و الاختلاف** بين جزئيات هذه المادة.
* جمع ما يتوافق منها في **الشّكل** أو في **الوظيفة** وجعلها **قسما بذاته** ثمّ تسميته **باسم معيّن.**

1. **التّقعيد:** وهو وضع القواعد المناسبة لما لاحظه الواصف بعد الاستقراء و التّصنيف، ويشترط فيه :

* أن لا تكون القاعدة بمثابة القانون المفروض على المتكلمين باللّغة المدروسة .
* صياغة القاعدة بعبارة مختصرة قدر الإمكان.
* أن لا تتصف القاعدة بالعموم، و ليس من الضروري أن تتصف بالشمول فإذا ظهرت حالة تخالف القاعدة عدّت ظاهرة فرعية إلى جانب القاعدة، وقد تعضدها دون أن تطعن فيها.

1. **خصائص المنهج الوصفي:**

يتميّز **المنهج الوصفي** عن غيره من المناهج بأنّه :

* يهتم باللّغة **المنطوقة** و يجعلها **هدف البحث اللّغوي،**لأنّ التّغيّرات أكثر ما تظهر على اللّغة المنطوقة؛
* يقتصر على **الجانب الشكلي في وصف الظّواهر اللّغوية، و** طرح كل ما هو غير شكلي و لا تحدّه الضوابط التّركيبية للوحدات اللّغوية؛
* لا **يعير اهتماما للمنطق الأرسطي لأنّه يؤدي إلى الاضطراب و الجدل الذّهني، ويهتم بمنطق اللّغة الّذي يؤدي إلى التّفكير المنظّم** في تناول مظاهر اللّغة وعناصرها وتقسيم فصائلها و أنواعها؛
* **يستهدف وصف الظّاهرة اللّغوية دون مقارنتها ودون الوقوف على مراحل تطوّرها،**بل يصفها كما هي حيث اطّراد وشيوع قواعدها؛
* يعدّ المنهج الوصفيّ **أكثر المناهج توظيفا** في العلوم الإنسانية و بخاصّة في البحوث اللّغوية.

1. **أدوات المنهج الوصفي:**

يعتمد **المنهج الوصفي،** كبقية المناهج الأخرى، على **أدوات محدّدة** يمكن إجمالها فيما يأتي:

* **الملاحظة:** و هي أهم أداة يوظّفها **المنهج الوصفي** في الأبحاث اللّغوية ولا يمكنه الاستغناء عنها والمقصود بها هنا **الملاحظة العلمية الّتي تعني النّظر المتأني في الظّواهر بواسطة الحواس أو الاستعانة بوسائل و أدوات مناسبة** لموضوع الملاحظة.
* **العيّنة:**و هي **مجموعة تمثل المجتمع المستهدف بالدّراسة و البحث** ،يوظفها المنهج الوصفي عندما يتعذّر أو يصعب الاتّصال بكلّ فرد، أو عندما يكون مجتمع الدّراسة كبيرا يصعب التّحكم فيه؛
* **الاستبانة:** وهي **استمارة تضم مجموعة أسئلة** محضّرة تحضيرا يراعى فيه مجموعة من القواعد المنهجية توزّع على المستجوبين للإجابة عليها.

و في الختام نقول إنّ هذه **المناهج الثلاثة** الّتي ظهرت في أوروبا و الّتي أحدثت ثورة في **البحث اللّغوي** قد مهّدت لظهور مناهج أخرى على غرار **المنهج المقارن** الّذي يعتمد أساسا على المنهج الوصفي.